الفصل الثالث

هجرهم اللذات من أجل العلم!!

في القرآن والسنّة النبوية حديث مستفيض عن الترغيب في الزواج ، لكن قد نعجب من أن أكابر علماء السلف فضّلوا العزوبة علىٰ الزواج!!

كيف ذلك ، وهم الأعلام وأهل الصلاح ، وهم الذين يعرفون أوامر الشريعة في هذا المجال ؟

لقد آثروا العلم على الزواج ، وفرّغوا كل طاقاتهم لخدمة العلم ، وبدل أن يخلد ذكرهم الأولاد ، خلّد العلم ذكرهم ، كما قال (أبو الفتح البستي) رحمه الله تعالىٰ :

يقولون : ذكر المرء يحيا بنسله ... وليس له ذكرٌ إذا لم يكن نسلُ
فقلتُ لهم : نسلي بدائع حكمتي ... فإن فاتنا نسلٌ فإنا به نسلو!!

وكما قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ : ينبغي للإنسان أن يسعىٰ في تحصيل ذرّية تذكر الله تعالىٰ بعده ، فيكون الأجر له ، أو يصنّف كتاباً من العلم ، فإن تصنيف العالم ولَدُهُ المخلَّد ، يُنقل من كتابه ما يقتدي الغير به ، فذلك الذي لم يمت :

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء![1]

---

(١) صيد الخاطر : ٢٠ـ٢١ .

ورحم الله حجة الإسلام الإمام الغزالي عندما قال ـ وهو يتحدث عن آفات النكاح ـ :

. . الآفة الثالثة : أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالىٰ ، وجاذباً له إلىٰ طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للأولاد ، بكثرة جمع المال ، وادّخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم .

وكل ما شغل عن الله تعالىٰ من أهل ومال وولد ، فهو شؤم على صاحبه ، ولست أعني بهذا أن يدعوه إلىٰ محظور ، فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولىٰ والثانية ، بل أن يدعوه إلىٰ التنعّم بالمباح ، بل إلىٰ الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والإمعان في التمتع بهن .

ويثور من النكاح أنواعٌ من الشواغل من هذا الجنس ، تستغرق القلب ، فينقضي الليل والنهار ، ولا يتفرّغ المرء فيهما للتفكر في الآخرة والاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالىٰ : من تعوّد أفخاذ النساء لم يجئ منه شيء ، وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالىٰ : من تزوّج فقد ركن إلىٰ الدنيا ، أي يدعوه ذلك إلىٰ الركون إلىٰ الدنيا .

فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكم علىٰ شخصٍ واحد بأَنَّ الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً : قصورٌ عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور ، بل تُتَّخذ هذه الفوائد والآفات معتبراً ـ أي مقياساً ـ ومحكاً ، ويعرض المرء عليه نفسه :

فإن انتفت في حقه الآفات ، واجتمعت الفوائد ، بأن كان له مال حلال ، وخُلق حسن ، وجدٌّ في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله تعالىٰ ، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل ، والتحصّن بالعشيرة ، فلا يُمارىٰ أن النكاح أفضلُ له ،

مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد .

فإن انتفت الفوائد ، واجتمعت الآفات ، فالعزوبة أفضل له ، وإن تقابل الأمران وهو الغالب ، فينبغي أن يوزن بالميزان القسط حظٌّ تلك الفائدة في الزيادة من دينه ، وحظ تلك الآفة في النقصان منه ، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به ، وأظهر الفوائد : الولد ، وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات : الحاجة إلىٰ كسب الحرام ، والاشتغال عن الله تعالىٰ .

فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ، ويحكم بحسبها ، ومن أحاط بهذا لم يُشكِل عليه شيء مما نقلنا عن السلف ، من ترغيبٍ في النكاح مرة ، ورغبة عنه أخرىٰ ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح[1] .

وقد حدثتنا كتب السير والتراجم عن نماذج من علماء السلف الذين آثروا العلم علىٰ الزواج ، ومنهم :

الإمام العابد ، المحدث الفقيه ، أبو نصر بشر بن الحارث المروزي ، المشهور باسم (بشر الحافي) ، روىٰ عنه أكابر القوم ، كالإمام أحمد بن حنبل ، وسري السقطي وغيرهما ، وحينما مات (ت : ٢٢٧هـ) خرجت بغداد كلها في جنازته رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

الإمام المجتهد المفسّر الفقيه الأصولي المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، حدثوا عنه في تحصيل العلوم والمجاهدة في هذا المضمار الشيء العجيب ، من ذلك أن بعض تلامذته ، أحصوا أيام حياته ، منذ بلغ الحلم إلىٰ أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها

---

(١) إحياء علوم الدين : ٢/ ٢١ـ٢٣ .

أوراق مصنفاته ، فصار منها علىٰ كل يوم أربع عشرة ورقة!! وذكر محمد كرد علي في ترجمة حياته :

وما أُثر عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة ، روىٰ المعافىٰ بن زكريا عن بعض الثقات ، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالىٰ قبل موته ، وتوفي بعد ساعةٍ أو أقلّ منها ، فذكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد رضي الله عنه ، فاستدعى محبرةً وصحيفةً فكتبه!

فقيل له : أفي هذه الحال ؟! فقال : ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتىٰ الممات!![1]

وهكذا أمضىٰ حياته ، عزباً لا زوجة ولا ولد ، وتوفي في (ت : ٣١٠هـ) .

ومنهم :

العلامة الإمام : أبو بكر بن الأنباري ، المفسّر ، الأديب ، النحوي ، قيل في انكبابه علىٰ العلوم الشيء الكثير ، من ذلك :

أنه كان يحفظ ثلاثمئة ألف بيت من الشعر شاهدةً في القرآن!!

وكان يأخذ الرُّطب يشمّه ويقول : أما إنك لطيب ، ولكن أطيب منك حفظ ما وهب الله لي من العلم!!.. وبقي عزباً حتى مات (ت : ٣٢٨هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ومنهم :

إمام أئمة العربية في عصره : أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي .

له مؤلفات في علوم العربية وعلوم القرآن ، وخدم العلم وأهله ، وآثر

---

(١) كنوز الأجداد : ١٢٣ .

العزوبة على الزواج من أجل العلم ، وبقي على ذلك حتى مات (ت : ٣٧٧هـ) رحمه الله تعالىٰ[١] .

ومنهم :

شيخ الإسلام أبو علي الجعفي ، فرّغ نفسه للعلم ، وترك الانشغال بالأولاد والزوجة ، فبلغ المراتب العليا ، حتىٰ إن سفيان بن عيينة كان إذا رآه قبّل يده!

وقال حميد بن الربيع الخزاز : كتبنا عنه أكثر من عشرة آلاف حديث .

وبقي على حاله حتىٰ وافته المنية (ت : ٢٠٣هـ) رحمه الله تعالىٰ[٢] .

ومنهم :

الحافظ الفقيه الزاهد أبو سعد السمّان الرازي ، أحد المحدثين والفقهاء والمفسرين ، طاف الدنيا من مشرقها إلى مغربها ، وكان إماماً في فقه أبي حنيفة رضي الله عنه ، وفي فقه الزيدية ، قرأ على ثلاثة آلاف رجل من شيوخ زمانه!

أوقف كل أوقاته علىٰ قراءة القرآن والتدريس والرواية ، ومات ولم يتزوج .

ومنهم :

إمام العربية الزمخشري (ت : ٥٣٨هـ) ، والعلامة الأديب المفسر المعروف بابن الخشاب (ت : ٥٦٧هـ) ، ومنهم العلامة الفقيه الزاهد : أبو الفتح ناصح الدين الحنبلي (ت : ٥٨٣هـ) ، ومنهم القاضي أبو

---

(١) الأعلام للزركلي : ٢/ ١٩٥ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر : ٢/ ٣٥٨ .

الحسن علي الشيباني القفطي (ت : ٦٤٦هـ) ، ومنهم الإمام النووي ، والذي عاش حياة الورع والزهد ، وتفرّغ للدراسة والتدريس والتصنيف ونشر العلم ، ورفض الانشغال بالأولاد والزوجة ، (ت : ٦٧٦هـ) .

ومنهم :

شيخ الإسلام : ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ ، كان عالماً حافظاً ، فقيهاً مجتهداً ، مفسراً بارعاً ، علماً زاهداً ، خدم تفسير القرآن والحديث النبوي الشريف ، وأوذي في ذات الله . . . .

فرّغ وقته كله للعلم ، لذلك قيل : بلغت مؤلفاته قرابة (٥٠٠) خمسمئة كتاب ، أوذي في سبيل الله حتىٰ مات في سجن القلعة بدمشق (ت : ٧٢٨هـ) رحمه الله تعالىٰ ، بعد أن قضى حياته عزباً ، لا ولد ولا زوجة[١] .

وأمثال هؤلاء العلماء العزاب في تاريخنا الكثير[٢] .

* * *

ولم يكتف علماء السلف بترك لذة النكاح من أجل العلم فقط ، بل يتجاوز ذلك إلىٰ ترك لذة النوم والراحة وما إلى هنالك ، لكن لماذا ذلك كله ؟ لأن العلم لابد له من تضحيات كبيرة ، فعلىٰ قدر شرف العلم ومكانته تكون التضحية باللذائذ وما إلى هنالك .

وقد قالوا قديماً : لا يُستطاع العلم براحة الجسد!! والعلم لا يعطيك بعضَهُ إلا إذا أعطيته كلك!!

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي : ١٤٩٦/٤ ، وللتوسع يراجع ترجمته الوافية في مقدمة كتابي : مكارم الأخلاق عند ابن تيمية : ٧ـ٢٣ .

(٢) كتاب : العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج ، عبد الفتاح أبو غدة .

وقد سطر العلماء صفحات خالدة رائعة ، فيها الأدلة الدامغة على كيفية تحصيل العلوم عن طريق هجر النوم واللذائذ ، ولنضرب بعض الأمثلة :

رحم الله الفقيه السمرقندي عندما قال : لا ينالُ هذا العلم إلا من عطّل دكانه ، وخرّب بستانه ، وهجر إخوانه ، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته!!

ورحم الله التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح (ت : ١١٥هـ) ، فقد حدثوا عنه أحاديث فيها العجب العجاب ، من ذلك :

قال ابن جُريج : كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة!

وقال إسماعيل بن أمية : كان عطاء يُطيل الصمت ، فإذا تكلَّم خُيّل إلينا أنه مؤيّد .

وكان أسود ، أعور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، ثم عمي!

ففي جسمه ستة عيوب ، ولكنه كان ركناً من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة ، وكان ثقة فقيهاً ، حج قرابة سبعين حجة[1] .

ورحم الله المحدث الفقيه التابعي محمد بن شهاب الزهري (ت : ١٢٤هـ) ، تحدثنا سيرته أنه كان إذا ذاكر أمراً ما من العلوم ، طار النوم من عينيه ، وقد ذكر الإمام الليث بن سعد فقال : تذاكر الزهري ليلةً بعد العشاء حديثاً ، وهو جالس متوضئ ، فما زال مجلسه حتى أصبح!![2] .

ورحم الله الفقيه التابعي القاضي ابن شبرمة (ت : ١٤٤هـ) ، فقد

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي : ٤/ ٢٧٩ .
(٢) سنن الدارمي : ١/ ١٢١ .

كان الصبح يؤذن له ، وهو يراجع أموراً في العلم!!

قال الفضل بن غزوان : كنا نجلس ـ أنا وعبد الله بن شبرمة والحارث بن يزيد والمغيرة بن مقسم الضبي والقعقاع بن يزيد ـ بالليل ، نتذاكر الفقه ، فربما لم نقم حتىٰ نسمع النداء لصلاة الفجر!![1] .

ورحم الله الإمام المجاهد الورع عبد الله بن المبارك (ت : ١٨١هـ) ، فقد كان يهجر لذة النوم من أجل تحصيل العلوم ، قال علي بن الحسن بن شقيق : قمتُ مع عبد الله بن المبارك في ليلة باردة ، ليخرج من المسجد ، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرتهُ ، فما زال يذاكرني حتىٰ جاء المؤذن فأذّن للفجر!![2] .

ورحم الله الإمام عبد الرحمن بن قاسم ، المعروف بابن القاسم (ت : ١٩١هـ) والذي لازم الإمام مالك رضي الله عنه وأخذ عنه الكثير ، يحدثنا عما جرىٰ معه فيقول : كنت آتي مالكاً غَلَساً فأسأله عن مسألتين ، ثلاثةٍ ، أربعة ، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر ، فكنت آتي كل سحر .

فتوسدتُ مرةً عتبته ، فغلبتني عيني فنمت ، وخرج مالك إلىٰ المسجد ولم أشعر به ، فركلتني جارية سوداء له برجلها ، وقالت لي : إن مولاك قد خرج ، ليس يغفُلُ كما تغفل أنت ، اليوم له تسع وأربعون سنة ، قلّما صلّىٰ الصبح إلا بوضوء العتمة!!

ثم يقول : وأنخت بباب مالك سبع عشرة سنة ، ما بعت فيها ولا اشتريت شيئاً ، قال : فبينما أنا عنده ، إذ أقبل حاج مصر ، فإذا شاب متلثم دخل علينا ، فسلم علىٰ مالك ، فقال : أفيكم ابن القاسم ؟

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني : ٨/ ٢٩٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي : ١/ ٢٧٧ .

فأشير إليّ ، فأقبل يقبّل عينيَّ ، ووجدت منه ريحاً طيبة ، فإذا هي رائحة الولد ، وإذا هو ابني ، وكان ابن القاسم ترك أمه حاملاً به ، وكانت ابنة عمه ، وقد خيّرها عند سفره لطول إقامته ، فاختارت البقاء!![1] .

ورحم الله الإمام المجاهد العالم الرحالة الفقيه القاضي أسد بن الفرات (ت : ٢١٣هـ) والذي كانت له مع العلوم أمورٌ عجيبةٌ :

كان أسد بن الفرات قاضي القيروان وتلميذ الإمام مالك ومدوّن مذهبه ، وأحد القادة الفاتحين ، فتح صقلية واستشهد بها ، وكان قد خرج من القيروان إلىٰ الشرق سنة ١٧٢هـ ، فسمع الموطأ علىٰ مالك بالمدينة ، ثم رحل إلىٰ العراق ، فسمع من أصحاب أبي حنيفة وتفقه عليهم ، وكان أكثر اختلافه إلىٰ محمد بن الحسن الشيباني ، ولما حضر عنده قال له : إني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نَزْر ، والطلبة عندك كثير ، فما حيلتي ؟

فقال له محمد بن الحسن : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتبيت عندي وأسمعك .

قال أسد بن الفرات : وكنت أبيت عنده وينزل إليّ ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل ونعستُ ، ملأ يده ونضح وجهي بالماء فأنتبه ، فكان ذلك دأبه ودأبي ، حتىٰ أتيت علىٰ ما أريد من السماع عليه!!

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حين علم أن نفقته نفدت ، وأعطاه مرة ثمانين ديناراً حين رآه يشرب من ماء السبيل ، وأمدّه بالنفقة حين أراد الانصراف من العراق[2] .

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ٣/ ٢٥١ .

(٢) للتوسع يراجع : ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣/ ٢٩١ـ٣٠٠ .

ورحم الله عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب القرطبي (ت : ٢٣٨هـ) ، والذي هجر النوم من أجل العلم ، يقول تلميذه أبو عمر يوسف يحيىٰ المغاصي :

طرقت عبد الملك بن حبيب يوماً بغلس ، حرصاً على الاقتباس منهم ، واستأذنت عليه ، فأذن لي ودخلت ، فإذا به جالس في مجلسه ، عاكف علىٰ الكتب ، قد أحاطت به ينظر فيها ، والشمعة بين يديه تقدُ ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة ، فسلّمت فردّ عليّ وقال لي : يا يوسف ، أوَ قد انسلخ الليل ؟ قلت : نعم وقد صلّينا ، فقام إلىٰ صلاة الصبح فصلاّها ، ثم رجع إلى مقعده ، وقال : ما صلّيت هذه الصلاة إلا بوضوء العشاء الآخرة ! !(١) .

ورحم الله الإمام البخاري (ت : ٢٥٦هـ) أمير المؤمنين في الحديث ، والذي ما وصل إلىٰ هذه الرتبة الرفيعة إلا بالسهر وقلّة النوم .

قال الحافظ ابن كثير : وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه ، فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمرّ بخاطره ، ثم يطفئ سراجه ، ثم يقوم مرة أخرىٰ وأخرىٰ ، حتىٰ كان يتعدّد منه ذلك قريباً من عشرين مرة ! !(٢) .

ورحم الله الفقيه المالكي المحدث محمد بن سحنون القيرواني (ت : ٢٥٦) ، حيث كان يفنىٰ في العلم ويستغرق إلىٰ حد عجيب ، من ذلك ما رواه أحد تلامذته فقال : كانت لمحمد بن سحنون سُرّية ـ أمة مملوكة ـ يقال لها : أم مُدام ، فكان عندها يوماً ، وقد شُغل في تأليف

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/ ٤٤ .

(٢) البداية والنهاية : ١١/ ٢٥ .

كتاب إلىٰ الليل ، فحضر الطعام ، فاستأذنته ليأكل فقال : أنا مشغول الساعة!

فلما طال عليها ، جعلت تلقّمه الطعام حتىٰ أتت عليه ، وتمادى هو علىٰ ما هو فيه ، إلى أن أُذّن لصلاة الصبح ، فقال : شُغلنا عنك الليلة يا أم مدام ، هات ما عندك ، فقالت : قد والله يا سيدي ألقمته لك ، فقال لها : ما شعرت بذلك!![1] .

ورحم الله الإمام الذهلي (ت : ٢٥٨هـ) شيخ البخاري ومسلم وغيرهم من علماء الحديث ، والذي كان له عشق للعلم ، بحيث ينسى أمام ذلك كله النفس و . . . ، يروي واحد من أولاده فيقول :

دخلت علىٰ أبي في الصيف الصائف وقت القائلة ، وهو في بيت كتبه ، وبين يديه السّراج ـ لظلمة الحجرة التي هو فيها في وسط النهار ـ!

فقلت : يا أبة ، هذا وقت الصيف ، ودخان هذا السراج بالنهار يضرك ، فلو نفَّست عن نفسك ؟

فقال لي : يا بني تقول لي هذا ؟ وأنا مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين ؟![2] .

ورحم الله الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت : ٣٢٧هـ) صاحب كتاب الجرح والتعديل ، والذي طلّق النوم والطعام واللذات ، وأوقف نفسه للعلم وحده ، من ذلك ما رواه عن نفسه فقال :

رحل بي أبي من الري إلىٰ خراسان سنة خمس وخمسين ومئتين ، وما احتلمتُ بعد ، فلما بلغنا ذا الحُليفة ـ ميقات أهل المدينة المنورة ـ

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض : ٣/ ١١٤ .

(٢) تاريخ بغداد : ٣/ ٤١٩ .

احتلمتُ فسرَّ أبي حيث أدركت حجّة الإسلام .

. . وكنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقةً ، نهارنا ندور على الشيوخ ، وبالليل ننسخ ونقابل ، فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً ، فقالوا : هو عليل ، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها ، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ ، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام ، وكادت أن تُنتن! فأكلناها نيئةً لم نتفرغ نشويها!! ثم قال : لا يُستطاع العلم براحة الجسد!![1] .

ورحم الله الشيخ الرئيس (ابن سينا) (ت : ٤٢٨هـ) ، والذي ما وصل إلى ما وصل إليه من علوم إلا بهجر لذائذ الحياة ، فلقد جاء في ترجمة حياته :

ولما بلغ عشر سنين من عمره ، كان قد أتقن القرآن العزيز والأدب ، وحفظ أشياء من أصول الدين والحساب والجبر والمقابلة ، ثم أحكم علم المنطق وأقليدس والمجسطي ، وفاق شيخه الحكيم أبا عبد الله الناتلي أضعافاً كثيرة ، وكان مع ذلك يختلف في الفقه إلىٰ إسماعيل الزاهد ، واشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والإلهي ، وفتح الله عليه أبواب العلوم ، ثم رغب بعد ذلك في علم الطب ، وتأمّل الكتب المصنفة فيه ، وعالج تأدباً ـ تعلماً وتعليماً ـ لا تكسباً ، وعلم الطب حتىٰ فاق فيه الأوائل والأواخر في أقلّ مدة ، وأصبح فيه عديم النظر فقيد المِثْل ، واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه ، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة ، وسنّه إذ ذاك نحو ست عشرة سنة!

وفي مدة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها ، ولا اشتغل في النهار

---

(١) تذكرة الحفاظ : ٣/ ٨٣ .

بسوىٰ المطالعة ، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضأ وقصد المسجد الجامع ، وصلىٰ ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له ، وكان نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه ، وصنّف ما يقارب مئة مصنف ، ما بين مطوّل ومختصر ورسالةٍ في فنون شتى!![1] .

ورحم الله إمام الحرمين ـ الجويني ـ (ت : ٤٧٨هـ) حيث كان تعلّقه بالعلم شيئاً عجباً ، وقد حدّث تلميذه عبد الغافر الفارسي فقال :

. . لما توفي أبوه الإمام أبو محمد الجويني ، كانت سنّه دون العشرين ، فأُقعد مكانه للتدريس ، فكان يقيم الرَّسم في درسه ، ويقوم منه ويخرج إلىٰ مدرسة البيهقي ، حتىٰ حصّل الأصول وأصول الفقه علىٰ الأستاذ الإمام أبي القاسم الإسكاف الإسفرايني ، وكان يواظب علىٰ مجلسه ، وقد سمعته يقول في أثناء كلامه : كنت علّقتُ عليه في الأصول أجزاءً معدودة ، وطالعت في نفسي مئة مجلّدة!!

وكان يصل الليل بالنهار في التحصيل حتى فرغ منه ، ويبكّر كل يوم قبل الاشتغال بدرس نفسه ، إلىٰ مجلس الأستاذ أبي عبد الله الخبازي يقرأ عليه القرآن ، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يمكنه مع مواظبته علىٰ التدريس .

ولما عاد من إقامته ومجاورته بمكة المكرمة أربع سنين يدرّس فيها ويفتي ، بُنيت له المدرسة النظامية في نيسابور ، وأُقعد للتدريس فيها ، وبقي علىٰ ذلك قريباً من ثلاثين سنة ، غير مزاحم ولا مدافع ، مُسلَّم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة والمناظرة ، وهُجرت له المجالس ، وحضر درسه الأكابر والجمّ العظيم

---

(١) وفيات الأعيان : ١/ ١٥٢ .

من الطلبة ، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمئة رجل من الأئمة ومن الطلبة .

وسمعته في أثناء كلام يقول : أنا لا أنام ولا آكل عادة ، وإنما أنام إذا غلبني النوم ، ليلاً كان أو نهار ، وآكل الطعام إذا اشتهيت الطعام أي وقتٍ كان ، وكان لذّته ولهوه ونزهته في مذاكرة العلم ، وطلب الفائدة من أي نوع كان!![1] .

أجل !

فتلذّذ العلماء لا يكون بالسهرات الحمراء ، ولا باللجوء إلى شواطئ البحار ، ولا بجمع الذهب والفضة ، إنما المسألة كما عبّر عنها علامة العربية الإمام الزمخشري بقوله :

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي ... من وَصْلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ
وتمايلي طرباً لحلّ عويصةٍ ... أشهىٰ وأحلىٰ من مُدامة ساقِ
وصريرُ أقلامي علىٰ أوراقها ... أحلىٰ من الدُّوكاه والعشّاقِ
وألذُّ من نقر الفتاة لدفّها ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي
يا من يحاول بالأماني رتبتي ... كم بين مستغلٍ وآخر راقي
أأبيتُ سهران الدجىٰ وتبيتهُ ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي ؟!

* * *

أجل !

فقد وصل العلماء إلىٰ المراتب العليا ، لا بالأماني والأحلام ، ولا بالدعة والراحة ، إنما وصلوا إلىٰ ذلك بعد تقديم تضحيات عظيمة في سبيل العلم .

---

(١) طبقات الشافعية للإمام السبكي : ٥/ ١٧٤ـ١٧٥ .

لقد آثروا العلم علىٰ النوم ، وآثروه على الزواج ، ولاقوا في سبيل ذلك المشاق الجسيمة ، حتىٰ إنهم فقدوا أغلىٰ ما يملكون ، وهي الكتب والتصانيف .

وللكتب في نفوس العلماء مكانة سامية ، فهي الوحيدة التي يأنسون بها ، وخاصة عندما يخالطون الناس فلا يرون منهم إلا الغش و. . . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذا ما عبّر عنه الإمام القاضي الجرجاني بقوله :

ما تطعّمتُ لذة العيش حتى ... صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء عندي أعزّ من العلم ... فما أبتغي سواه أنيسا
إنّما الذل في مخالطة النا ... س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا[1]

وعندما كان أحد العلماء يفتقد كتابه أو كتباً له ، كان يصاب بمصيبة أكثر من لو أنه أصيب بفقد ولد أو عزيز ، وفي تاريخ العلماء نماذج من ذلك :

رحم الله إمام المحدثين وشيخ البخاري (علي بن المديني) (ت : ٢٣٤هـ) ، جاء في ترجمة حياته : قد ألف كتابه العظيم (المسند) علىٰ الطرق ، واستقصى فيه واستوعب ما أمكنه ، ثم رحل رحلة طويلة ، فطوّف فيها ما طوّف من بلاد الإسلام في ثلاث سنين ، ثم عاد إلىٰ بلده البصرة ، فرأى (مسنده) قد أكلته دودة الكتب وقضت عليه! فمات الكتاب في حياة مؤلفه!![2] .

---

(١) وفيات الأعيان : ١/ ٣٢٥ .
(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ١١/ ٤٦٢ .

ورحم الله الإمام أبو علي الفارسي ، (ت : ٣٧٧هـ) جاء في ترجمة حياته :

لما وقع حريق بمدينة السلام ، وذهب جميع علم البصريين ، وكان لي صندوق مليء بالكتب النادرة ، فاحترقت كلها ، ولم أجد إلا نصف كتاب بالطلاق عن محمد بن الحسن ، فسأله واحد من تلامذته : وماذا حدث لك يا سيدي ؟

فقال : بقيت شهرين لا أكلّم أحداً حزناً وهماً ، وانحدرت إلىٰ البصرة لغلبة الفكر عليّ ، وأقمت مدة ذاهلاً متحيراً ! ![1] .

ورحم الله النحوي البغدادي (أبو محمد سعيد بن المبارك) (ت : ٥٦٩هـ) ، والذي كان له من التصانيف الشيء الكثير ، لكن الله ابتلاه في ذلك ، حيث أخذتها المياه التي أغرقت بغداد ، فلما وصل إليه الخبر ، أصيب بالعمى ! ![2] .

ورحم الله الأمير الأديب (أسامة بن المنقذ) (ت : ٥٨٤هـ) ، والذي حدث له حادثة ، حيث خرج عليه اللصوص ، فأخذوا كل ما لديه مع نسائه وأولاده ، لكنه قال : وهوّن علي سلامة أولادي وأولاد أخي حرمان ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ! فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت ! ![3] .

ورحم الله الحافظ عمر بن علي الوادي آشي الشهير بابن الملقن (ت : ٨٠٤هـ) ، والذي جاء في ترجمة حياته أنه لما احترقت كتبه اختلط قبل موته وتغير حاله ! !

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي : ٧/ ٢٥٧ .

(٢) وفيات الأعيان : ١/ ٢٠٩ .

(٣) الاعتبار لأسامة بن منقذ : ٣٦ .

بل إن أقرانه راحوا يعزّونه ويواسونه في ذلك المصاب ، وكأنهم يعزونه في فقد عزيز ، ومما قاله أحدهم له :

لا يزعجنّك يا سراج الدين إن لعبَتْ بكتبك ألسنُ النيران
لله قد قرّبتها فتُقبلت والنارُ مُسرعةٌ إلى القربان[1]

أجل :

كان للعلماء السابقين شغف في اقتناء الكتب ، وكانوا يحافظون عليها إلىٰ درجة كبيرة ، وكانوا يحرصون علىٰ اقتناء ما أمكن منها .

لكن العلماء بذلوا الغالي والنفيس كي يصلوا إلىٰ درجة تحصيل العلوم ، حتىٰ لو كان ذلك علىٰ حساب بيع كتبهم وما إلى هنالك ، وهذه هي التضحية في سبيل العلم ، فهل نأخذ درساً واحداً من أولئكم المشاغل ؟!

* * *

(١) الضوء اللامع للإمام السخاوي : ٦/ ١٠٥ .